

ميلاد والدة الإله الميتروبوليت ييروثيوس فلاخوس نقلها إلى العربية الأب انطوان ملكي

تحتفل الكنيسة بميلاد والدة الإله في الثامن من أيلول من كل سنة، وهو بداية أعياد والدة الإله، التي منها تنشأ أعياد السيد المسيح. ترتبط الأهمية اللاهوتية العظيمة للعيد بتجسد المسيح، وهو نتيجة الاتحاد الأَقنومي بين الطبيعة الإلهية والبشرية في المسيح، والذي تمّ في رحم والدة الإله. هي لم تترك مجرد إنسان، بل ولدت الله. أعطت جسدها للأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، ولهذا سميت ثيوتوكوس أي والدة الإله. وبحسب القديس يوحنا الدمشقي، فإن هذه الكلمة (ثيوتوكوس) "تشكّل كل سر التدبير".

١. أول أعياد والدة الإله في السنة الكنسية

تبدأ السنة الكنسية في الأول من أيلول، بداية الإنديكستي، وعيد ميلاد والدة الإله هو أول عيد للسيدة في السنة الكنسية، لأن العد التنازلي لخلاص البشرية بدأ بميلادها. تنتهي السنة الكنسية في الحادي والثلاثين من آب بعد عيد رقاد والدة الإله وعيد وضع زناها الثمين.

بدأ الاحتفال بعيد ميلاد والدة الإله في القدس في القرن السادس، في الكنيسة التي بُنيت في القرن الخامس على الموقع الذي كانت فيه "بركة الغنم" بالقرب من منزل عائلة أم الإله. تسمّى هذه الكنيسة بكنيسة السيدة والدة الإله. انتقل العيد من القدس إلى القسطنطينية في القرن السابع، حيث أدخله القديس أندراوس رئيس أساقفة كريت، الذي كان مقدسياً. قد يكون العيد حُدّد في الثامن من أيلول إما لأنه تاريخ تدشين الكنيسة أو لأنه في بداية السنة الكنسية.

بحسب يوسف برينوس، فإن عيد ميلاد والدة الإله هو "أول عيد في السنة بالنسبة لنا"، وعيد رقاد والدة الإله هو "آخر أعياد السيدة"، باعتبار أن السنة تبدأ بميلاد السيدة ذات السيادة "وتنتهي بانتقالها". تبدأ السنة الكنسية بميلاد السيدة العذراء الكلية القداسة وتنتهي برقادها المجيد.

يكتب المعلم يوسف برينوس نفسه أيضاً أن عيد ميلاد والدة الإله "له أسبقية بارزة على كل احتفال"، وبعبارة أخرى، إنه أعظم امتيازاً من جميع الأعياد ويأتي قبلها جميعاً. كما أن جذر الشجرة هو سبب فروعها وسيفانها وزهورها وثمارها، ولا يوجد أي منها بدون الجذر، فالأمر نفسه ينطبق على الأعياد أيضاً. بدون عيد ميلاد والدة الإله "لن يظهر أي شيء مما ينمو". كما أن عيد العنصرة هو الفاكهة والنتيجة النهائية لجميع الأعياد السابقة، وهو أولها كالجذر، كذلك هو عيد ميلاد والدة الإله. يكتب يوسف برينوس: "كما أن هناك عيد العنصرة لأن هناك الصعود، والصعود بسبب القيامة، والقيامة بسبب الصلب، والصلب بسبب المعجزات، والمعجزات ترجع إلى المعمودية، ومن المعمودية من التقديم إلى الهيكل، ودخول الهيكل يأتي بسبب الميلاد، والميلاد بسبب البشارة، والبشارة هي دخول قدس الاقداس. ومن الواضح أن هذا يرجع إلى أن ميلاد السيدة العذراء والدة الإله جاء أولاً".

إذا فسرنا هذا التسلسل في الاتجاه المعاكس، فهذا يعني أن عيد ميلاد والدة الإله كان مصدر جميع الأعياد الأخرى، بما في ذلك دخول والدة الإله إلى الهيكل، وبشارتها، وميلاد المسيح، تقدمته إلى الهيكل، المعمودية، المعجزات، الصلب، القيامة، الصعود، والعنصرة.

تُعتبر السنة الكنسية بكاملها سنة خلاص، وزمناً للخلاص، ولذلك توصف بأنها "سنة النعمة". وهي مقسمة إلى أعياد الرب، أعياد والدة الإله، وأيضاً أعياد القديسين، وكل هذه الاحتفالات تحدد السنة. بهذا المعنى، حياتنا كلها هي وقت الخلاص، ومن خلال أعياد التدبير الإلهي نختبر أحداث حياة المسيح، وهذا يحدد حياتنا بأكملها ويلوّنّها. يسمى تجسد المسيح "التدبير الإلهي" (من الكلمة اليونانية oikonomia، والتي تعني "الإدارة" أو "التنظيم") لأنه يوضح كيف ربّب الله خلاص البشرية. هذا هو التاريخ المقدس.

بحسب القديس أندراوس الكريتي، فإن عيد ميلاد والدة الإله هو بداية ووسط ونهاية جميع الأعياد من وجهة نظر التدبير الإلهي. إنه بداية الأعياد لأنه "يبدأ من إتمام الناموس. إنه نقطة المنتصف لأنه يجمع بين النقيضين؛ وهو النهاية لأنه يظهر الحقيقة". بهذا العيد يكتمل الناموس الذي تكلم عن المسيح؛ يبدأ العد التنازلي للخلاص؛ الحق الذي هو نهاية الناموس يُكشَف؛ والعهد القديم والجديد يتحدان.

يكتب القديس غريغوريوس بالاماس أن شهر أيلول هو الشهر الأول وبداية السنة الكنسية، وفي هذا الشهر بدأت أسرار خلاصنا. إن عيد ميلاد والدة الإله، باعتباره أول عيد للكنيسة في السنة، هو أول احتفال "باستردادنا وتجديدنا" بالنعمة. إنه اليوم الذي فيه بدأ كل شيء يتجدد، عندما بدأ إدخال وصايا دائمة بدلاً من التعاليم المؤقتة، الروح بدلاً من الحرف، والحقيقة بدلاً من الظلال.

من خلال تقويم الأعياد الذي أقامته، تريد الكنيسة أن تُظهر للمسيحيين أنه لا ينبغي لهم أن يروا حياتهم عبر الأحداث السياسية والتاريخية والاجتماعية، بل في ضوء أحداث الخلاص، كما يتم التعبير عنها في أعياد السيد ووالدة الإله، كما في أعياد القديسين. لذلك نحدد مواسم السنة (الخريف والشتاء والربيع والصيف)، وكذلك أشهراً معينة، من خلال تقويم الكنيسة الرائع الذي وضعه آباء الكنيسة باستنارة إلهية.

تكشف قراءات الأعياد والترانيم التي تُنشَد عن معنى كل احتفال، لكنها قبل كل شيء توجه أفكار الناس نحو الهدف من وجودهم، ونحو اكتساب عقلية كنسية أرثوذكسية أصيلة. لذلك فهم يساهمون بمشاركتهم في حياة الكنيسة وفي تألّهم.

٢. حدث ولادة والدة الإله

إن إنجيل يعقوب، الذي سبق وذكرنا أنه إنجيل منحول غير مدرج في قانون العهد الجديد، يحكي عن ولادة والدة الإله ونموها وخطواتها الأولى والاحتفال الذي أقامه يواكيم عندما صار عمرها سنة واحدة.

لا يأتي سنكسار عيد ميلاد والدة الإله على ذكر ولادتها إلا قليلاً. يكتب أن يواكيم وحنة كانا من أصل ملكي وكانا فاضلين بارزين، لكن لم يكن لهما أولاد. بما أن يواكيم كان "ورعاً وغنياً"، فقد كان يقدم قرابين مزدوجة لله، لكنه كان يوبّخ لكونه بلا أطفال. لذلك انسحب إلى الجبل وذهبت حنة إلى حديقته، وسعى كلاهما إلى الله بدموع من أجل إنجاب طفل. لقد مزجا العفة والصلاة من أجل الإنجاب. سمع الله صلواتهم و"أعطاهما ثمرة الرحم المقدسة، والدة الله الفائقة القداسة".

أشاد آباء الكنيسة بفضيلة يواكيم وحنة، كما بولادة العذراء الكلية القداسة، من خلال العديد من العظات. تم حفظ بعض هذه المواعظ، بما في ذلك مواعظ القديس يوحنا الدمشقي، والقديس فوتيوس الكبير، والقديس أندراوس الكريتي، والقديس غريغوريوس بالاماس.

قبل آباء الكنيسة بعض الأحداث المحيطة بميلاد والدة الإله كما ترد في إنجيل يعقوب وامتدحها كتاب الترانيم المقدسة، وأدرجت الكنيسة نفسها العيد في عبادتها. وهذا صحيح، لأن هذه الأحداث تشير إلى أم المسيح، التي ساهمت بشكل كبير في خلاص الجنس البشري بسبب ميلاد المسيح وخلاص الإنسان.

تصوّر الأيقونات المقدسة السيدة العذراء في مشاهد مختلفة منذ ولادتها حتى رقادها. الهدف هو بالطبع التعبير عن عقيدة تجسد ابن الله وكلمته. تكرّم والدة الإله، قبل كل شيء، بسبب "ثمرة بطنها" وكل ما يتعلق بالمسيح. إن فضائلها تعتمد على هذه الحقيقة اللاهوتية.

تتخذ أيقونة ولادة والدة الإله أشكالاً مختلفة. أحياناً تصوّر والدة الإله على أنها طفلة تُحمّمها امرأتان في حوض، كما هو الحال في المشهد المقابل لميلاد المسيح. في بعض الأحيان، تظهر كطفل ملفوف في أقمطة، حسب العادة، مستلقية في مهد تهزه خادمة وهي في نفس الوقت إما تدور أو تحمل مروحة. عادةً ما يُظهر الجزء العلوي من الأيقونة القديسة حنة جالسة على سرير، بينما الخادمت اللاتي في خدمتها يحملن مراوح أو يجلبن لها الطعام. تصوّر الأيقونات الأحداث لميلاد السيدة العذراء مشهدين، أحدهما يظهر والدة الإله وهي تغتسل بعد ولادتها، والآخر يظهرها وهي تستريح في مهد (كونستانطينوس كالوكيريس).

إن مَنْ يرى هذه الأيقونات يمتلئ بالدهشة من مجيء السيدة العذراء الكلية القداسة إلى العالم وتهيئة الله لتجسد كلمته. أيضاً يرى طريقة توليد الأطفال في تلك الحقبة، والتي كانت مختلفة بشكل ملحوظ عما يحدث اليوم. في الوقت الحاضر، تلد النساء في ظروف مثالية في العيادات، متمتعاً بأحدث رعاية علمية وبإشراف طاقم طبي وتمريضي. في كل مرة يولد فيها طفل، يجب أن نحمد الله على ولادة الطفل، كما على الظروف الأكثر ملاءمة التي تتم فيها الولادة.

يكتب القديس أندراوس الكريتي أن مريم والدة الإله هي "خميرة العجين الكاملة"، و "من خلالها يصنع الجنس البشري خبزاً حتى يعاد تكوينه". هذه الصورة مأخوذة من فعل الخميرة بالطحين في صناعة الخبز. الدقيق ضروري لصنع الخبز، لكن يجب خلطه مع الخميرة التي تخمّر العجين الأصلي وتحوّله إلى خبز. في هذه الاستعارة، يُشبه الجنس البشري كله بالدقيق، ولكن لكي يصبح هذا الدقيق خبزاً، هناك حاجة إلى الخمير أيضاً. إن شخص العذراء القديسة المبارك كان ضرورياً لإعطاء الطبيعة البشرية للمسيح، الذي هو خبز الحياة، حتى يتمكن الجنس البشري كله من إعادة تكوينه بعد معاناته من الفساد من خلال سقوط أول البشر المخلوقين.

يصف القديس نيكولاس كاباسيلاس يوم ميلاد والدة الإله بأنه وليمة للمسكونة بأسرها. لذلك، نحن لا نحتفل بهذا اليوم باعتباره "عيد ميلاد العذراء"، ولكن باعتباره عيد ميلاد "المسكونة بأسرها". كما أنه يستخدم أيضاً صورة العين العمياء. كان الإنسان معمي بسبب الخطيئة التي ارتكبتها فأظلمت طبيعته. لم يكن لديه عيون ليرى مجد الله. بعد ذلك، مع ولادة الكلية القداسة العذراء، الطبيعة البشرية العمياء "تلقت عيناً حقيقية"، أي العذراء، وبهذه العين استطاعت أن ترى عظمة اليوم، التي هي المسيح .

يكتب يوسف برينيبوس أن "العذراء ولدت كطفل بكر وسوف تحمل بكر الخليقة". إن ابن الله وكلمته هو "صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بَكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ" (كولوسي ١: ١٥). حسب ميلاده الإلهي، فقد وُلد من الأب قبل خلق العالم، وبحسب طبيعته البشرية قام بكبر لجميع الأموات الآخرين. لذلك كان من اللائق أن يولد بكر كل خليقة من عذراء بكر، هي والدة الإله الفاتكة القداسة. كما أن آدم الأول خرج من الأرض العذراء، فإن إعادة تكوين الجنس البشري يجب أن تتم "من خلال رحم العذراء".

يذكرنا ميلاد السيدة العذراء، كما نراه في الأيقونات أيضاً، بميلاد جميع البشر، لأن كل شخص هو مولود بقوة الله من خلال المادة الوراثية لوالديه. يأتي الحمل والحبل والولادة بطريقة مدهشة، وهو حقاً سر. تتكرر هذه الحقيقة مراراً وتكراراً في تاريخ البشرية، ونتوقع دائماً أن يتم الكشف عن إرادة الله من خلال ولادة طفل، إن يُمجد الله من خلال الطفل، ويحقق كل إنسان هدفه في النهاية وهو القداسة. في الوقت نفسه، من خلال عيد ميلاد والدة الإله، نكرم أيضاً النساء اللواتي يقبلن كل ما يتعلق بالحمل والحبل والولادة، على الرغم من الألم الذي يعانين منه. لكنهن بهذا يصبحن أمهات ينقلن الحياة.

٣. فرح كل المسكونة

تقول طروبارية العيد أن ميلاد والدة الإله جلب الفرحة للعالم كله، ولهذا السبب فهو عيد عالمي. "ميلادك يا والدة الإله بشر بالفرح كل المسكونة." إنه عيد لكل المسكونة يسمو فوق العالم، فرح عالمي، احتفال بميلاد والدة المسيح. يمكن فهم هذا الجانب العالمي من العيد من ناحيتين. أولاً، إنه يشير إلى كل الخليقة، الأرضية والسماوية، الملائكية والبشرية، لأن العذراء الكلية القداسة هي فرح كل الخليقة. في كل العصور، كان الأنبياء والآباء وأبرار العهد القديم ينتظرونها. لقد عاشوا جميعاً تحت تسلط الموت وكانوا ينتظرون مخلصاً. كانوا ينتظرون تجسد الكلمة غير المتجسد، ملاك المجد، حتى يتحرروا من تسلط الموت والفساد.

المعنى الثاني للفرح العالمي والاحتفال العالمي يتعلق بالمسيحيين الذين يعيشون في جميع أنحاء العالم المعروف في ذلك الوقت، في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية المسيحية. كان الاحتفال بعيد ميلاد والدة

الإله يجري في كل مكان في الإمبراطورية، أي العالم المعروف آنذاك، خاصة بعد قرار المجمع المسكوني الثالث في أفسس عام ٤٣١، الذي تصدى للبدعة النسطورية ووضع المصطلح ثيوتوكوس، بدلاً من النسطورية خريستوتوكوس. كما حُدد هذا العيد أيضاً كأول أعياد والدة الإله والرب. كرمت الإمبراطورية الرومانية المسيحية المسيح والعذراء الكلية القداسة، فكان تكريس كنيسة الحكمة الإلهية (آيا صوفيا) للمسيح، حكمة الله، كما كُرِّست القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية، لوالدة الإله وكانت تتطلع إلى حمايتها.

لسوء الحظ، كثير من الناس في الوقت الحاضر لا يعتبرون الأعياد، مثل عيد ميلاد والدة الإله، احتفالات عالمية. لقد أثار الارتباك والتغيير على حياة الإنسان والغرض من وجوده. لقد ترك الناس اليوم وراءهم المسيح الإله-الإنسان، وتحولوا إلى إلى "الإنسان-الإله". بدلاً من أن تتمحور حياتهم حول المسيح وأمه، وضعوا في المركز إما أنفسهم أو أنظمة فلسفية واجتماعية مختلفة. تم تحديد الاحتفالات العالمية الأخرى، التي لا علاقة لها على الإطلاق بالمسيح أو العذراء القديسة أو القديسين أو الكنيسة بشكل عام، في كل يوم من أيام السنة. تستمر الكنيسة في الاحتفال بميلاد والدة الإله كعيد عالمي وشامل. والذين يسلكون بضمير حي ضمن الكنيسة، جسد المسيح، يصبحون كونييين وعالميين حقاً، لأنهم يحبون جميع البشر ويتعاطفون معهم ويصلّون من أجلهم. إنهم يشعرون بالاتحاد مع العالم كله، ويشعرون بحضور الملائكة والقديسين. تحترق قلوبهم بحبة المسيح والعذراء القديسة، ويشعرون بمجد الله بمختلف الطرق. بكلمة، إنهم يلامسون الخلود. فالمسيحيون، إنن، ليسوا فقط كونييين وفوق الحدود الوطنية، بل هم أيضاً يتجاوزون العالم وأبديون بنعمة الله. وحدهم مثل هؤلاء الأشخاص يمكنهم إدراك قيمة هذه الفرحة العالمية والاحتفال العالمي الذي يتجاوز العالم.

Source: Hierotheos, Metropolitan of Nafpaktos. (2016). "The Birth of the Theotokos", in The Feasts of the Mother of God. Translated by Sister Pelagia Selfe. Birth of Theotokos Monastery. Pelagia. Levidia. Greece . pp. 59-70.